دراسات أدبية :

موقف النقـــاد من الشعر الجاهلي

للاستاذ محمد عبد المنعم خفاجة

١ — الشعر الجاهلي الذي اتخذه الشعراء في مختلف العصور أصلا يحتذون حذوه ، وينهجون منهجه ، ويبنون عليه ويقلدونه في مناحيه الفنية والأدبية تقليدا كبيرا ، هذا الشعر هو الذي نريد أن نتحدث عن موقف النقاد منه وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثاً يجمع مع الايجاز أطراف هذا الموضوع المتشعب الدقيق .

٢ — وأول ما نذكره في هذا البحث آراء الجاهليين أنفسهم في الشعر الجاهلي ونقده ، وهذه الآراء كثيرة متعددة ، طائفة منها تتحدث عن منزلة بعض الشعراء الأدبية في الشعر ، وطائفة أخرى فيها نقد لبعض الشعراء .

فأنت تعلم أن كل قبيلة في الجاهلية كانت ترفع منزلة شاعرها على الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم في دولة الشعر ، فكان اليمنيون يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى تقديم عبيد ، وتغلب تقدم مهلهلا ، وبكر تقدم المرقش الأكبر ، وإياد ترفع من شأن أبي دؤاد وهكذا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيرا والنابغة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا ، وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحدا ، وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرىء القيس هو سابق الشعراء ، ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسه .

كما تعلم أن الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراء كثيرة في نقد الشعراء . فكان النابغة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ .

وعز على صفوة من المفكرين أن ينتهي الخلاف بين النقليين والعقليين عند هذا فشمروا للتوفيق بين الرأيين . مؤولين ما استطاعوا إلى التأويل سبيلا ، متخففين من أقوال الحكماء ما لا يجد دليله من كتاب أو سنة ، فمنهم من أبعد ومنهم من قارب . وقد كانت محاولات أولى فيها بالدلو إخوان الصفا ومن لف لفهم كالباطنية والإسماعيلية . وإذا ذكرنا الإسماعيلية ذكرنا ابن سينا الذي تربى في حجورهم وغذوه بتعاليمهم وكان له جولة في هذا الميدان كان فيها كالظل لأرسطو .

وتمخضت الأيام عن شيخ من شيوخ الإسلام نشأ والباطنية في عنفوانها فجال في هذا الميدان جولات على نهج من التوفيق والجمع بين الرأيين ، أسلم مغبة وأقرب إلى إنصاف أهل السنة وإرضاء المتدينين ، وكان هذا الشيخ الحجة أبا حامد الغزالي .

ويمضي الغزالي عام خمس بعد الخمسمائة والعالم الإسلامي في لهفة الى مفكر يقف لأرسطو في منطقه موقفا أكثر إرضاء وأقوى إشباعا ، فقد انطوت النفوس على شيء لم تملك برهانا يغلبه وحجة تزلزله ، ومضت مع راسخ ما تؤمن به وتعتقد تغالب ما يوسوس به الفكر ويهمس ، وهي لا تجد بين يديها مفكرا يواجه أرسطو ويقف له .

وفي عام واحد وستين وستمائة من الهجرة ظفرت « حران » بمولود اسمه أحمد ، لم يكن العالم يقدر أن فيه العبقرية المنشودة ، ولكنه ما شب وترعرع وبدت بوادره حتى علقت به الآمال في ذلك المجال ، ولم يكن غير ابن تيمية .

ومن قبل ابن تيمية كلف أبو البركات البغدادي بمحاجة أرسطو في منطقه وصال معه صولات . وتكاد تظفر بأول فرسان هذا الباب ، وكتابه المعتبر فيه الكثير من هذه المواقف[1] .

إلا أن ابن تيمية ، وان جاء لاحقا ، يكاد يكون المحجاج المعول عليه والند المكافىء ، ويودي أن أشرك القارىء معي فيما أفدت ، ولكني لن أجد في صفحات الرسالة ما يسعف ، وحسبي من ذكره ما يحفز كل مفيد أن يرجع إليه ، ليعرف من ابن تيمية ما عرف لأرسطو .

ابراهيم الابياري

(١) هذا الكتاب طبعته دائرة المعارف العثمانية.

فتأتيه الشعراء وتنشده أشعارها ، أتاه الأعشى يوما فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لولا أن أبا بصير — أنشدني آنفا لقلت إنك أشعر الجن والأنس ، فقال : حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ؛ فقبض النابغة على يده وقال: يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فانك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أنشدته الخنساء :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار

فلما بلغت قولها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

قال : ما رأيت امرأة أشعر منك ، قالت ولا رجلا

وحكومة أم جندب الطائية بين امرىء القيس وعلقمة الفحل الشاعرين ، وتفضيلها علقمة على زوجها امرىء القيس ، مشهورة ولا داعي لذكرها ، فلها حديث آخر إن شاء الله .

ومر امرؤ القيس بكعب وأخويه الغضبان والقمقاع ، فانشدوه فقال إني لأعجب كيف لا تمتلىء عليكم نارا جودة شعركم ، فسموا بني النار .

وروى المرزباني في كتابه « الموشح » إن الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدي الشاعر في الشعر ، أيهم أشعر ، فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن ؛ لا هو أنضج فأكل ، ولا ترك نيئا فينتفع به . وأما أنت يا عمرو فان شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر ، نقص البصر . وما أنت يا مخبل فان شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم . وأما أنت يا عبدة فان شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر .

كما روى أيضا أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا في موضع ، فتناشدوا أشعارهم ؛ فقال لهم عبدة ! والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فاما أن تخبروني عن أشعاركم وإما أن أخبركم ؛ قالوا : أخبرنا ، قال : فاني أبدأ بنفسي: أما شعري فمثل سقاء شديد وغيره من الأسقية أرسع منه ، وأما أنت يا زبرقان فانك مررت بجزور منحورة فأخذت من أطايبها وأخذت

إلى غير ذلك من مواقف النقد والنقاد للشعر في العصر الجاهلي ؛ والتي لا تخرج عن الاستحسان أو الاستهجان للشعر والشعراء .

٣ — وجاء الإسلام فكان له ولرسوله الكريم موقف جليل من الشعر الجاهلي ، أنكر بعضا وعرف بعضا ؛ أنكر هذا الشعر الذي يناقض الأخلاق الكريمة والمثل العليا ، من الغزل الفاحش ، والهجاء الظالم ، والهجاء الكاذب ، والمدح المغرق ، والفخر المبني في الغلو والمبالغة ؛ وعرف هذا الشعر الذي يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والطموح وأداء الواجب وحب الجماعة والتضحية في سبيل الأمة والإنسانية ؛ فكان هذا الموقف الخالد للإسلام ونبيه العظيم توجيها جليلا لرسالة الشعر ، وتهذيبا نبيلا للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، ومجال الحق والعدل والحرية والنور ، وكان نقداً عميقاً للشعر والشعراء الجاهليين ، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للكسب وظهر أثر الإسلام والقرآن في تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه ، وفي البعد به عن الحوشية والغرابة وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الحلاوة والبلاغة والسلاسة . كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة في عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعانيهم وخيالاتهم

٤ — وفي عصر دولة بني أمية انتشرت العصبيات ، وكثرت الخلافات السياسية والدينية ، وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم ، فعادوا إلى مذاهب الجاهليين في الشعر ، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأي والعقيدة ، ولسانا لإذاعة محامدهم ومفاخرهم ، وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلي ، والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه ، ووضعت في هذا العصر أصول النحو العربي ، فأخذ العلماء ينقدون الشعر الجاهلي نقدا يتصل بالأعراب ، « كان ابن أبي اسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم ، وكان عيسى يقول: أساء النابغة في قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

ويقول موضعه : ناقما » (١)

٥ — ومن أشهر رواة الشعر الجاهلي ونقاده في القرن الثاني

(١) ٤١ الموشح للمرزباني و ١١ و ١٢ ابن سلام

الهجرى . أبو عمرو بن العلاء البصرى م ١٥٤هـ ، وحماد « الراوية » الكوفى (٧٥ – ١٥٦هـ) ، وخلف « الأحمر البصرى م ١٨٠ هـ ، ويونس البصرى م ١٨٢ هـ ، والمفضل الضبى م١٨٩ هـ وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب « المفضليات » وأول من فسر الشعر بيتا بيتا . ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين وإن كان الراجح أن حماد اسبقه فى هذا الميدان. ومنهم ابن الكلبى م ٢٠٤ ، وأبو زيد الأنصارى صاحب كتاب الجمهرة م ٢١٥ هـ ، وأبو عبيدة البصرى م ٢٠٩ هـ صاحب « النقائض » و« مجاز القرآن » ، والأصمعى البصرى م ٢١٦ هـ (٢)

كان أبو عمرو بن العلاء أشـــد الناس إكبارا للجاهليين وتعظيما لشأنهم ، جلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى . ويروى عنه : لو أدرك الأخطل يوما واحـداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً . وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام فى طبقات الشعراء : أشد الناس تسليما لهم

وكان المأمون على رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أمية

وكان الأصمعى مع تحامله على المحـدثين وشعرهم معتدلا فى عصبيته للشعر الجاهلى ، كان يحب الجيـد منه ، وينقد الرديء ، عاب امرأ القيس فى قوله فى وصف الفرس :

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها سـعف منتشر

والخيفانه فى الأصل هى الجرادة وتشبه بها الفرس فى الخفة ،

قال الأصمعى : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريما ، كما عاب غير امرى القيس من الشعراء . وكان يقول : ختم الشعر بالرماح ، وهو شاعر أموى مشهور

٦ — وفى القرن الثالث الهجرى نجد النقاد فى موقفهم من الشعر الجاهلى طائفتين :

فطائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجابا شديدا ، ولا ترى الشعر إلا لهم ، ومن هؤلاء ابن الأعرابى م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء . وكان يعيب شعر أبى نواس وأبى تمام ، ويقول : ختم الشعر بابن هرمة . وقال فى بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير من الشعراء . ومنهم أيضا إسحاق الموصلى م ٢٤٠ هـ ، وكان فى كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتد ببشار. ولم يكن موقفه قاصراً على الشعر وحده ، بل كان كذلك فى الغناء ، كان يتعصب للغناء القديم ، وينكر تغييره ويعظم الأقدام عليه . ومثل ذلك التعصب للقديم موجود فى الآداب الأوربية ، فقد كان هوراس الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، فان الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه . واعتذر الباقلانى عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى . واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى الشاهد والمثل وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون . ولكن الجرجانى فى الوساطة يذكر أن ذلك أثر لتعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم ، وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم . (٤٩ و ٥٠ وساطة ط بيروت)

وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبى والطبع وحده فى الشعر ، وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهليا كان أو إسلاميا أو محدثا ، فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم فى الزمن ، ولم يغضوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم . ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ هـ وابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ والمبرد م ٢٨٥ هـ وابن المعتز م ٢٩٦ هـ

يقول ابن قتيبة فى أول كتابه الشعر والشعراء : « ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ؛ فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون

(٢) كان لهؤلاء الرواة أثر كبير فى الشعر الجاهلى، فقد وضعوا الجاهليين فى طبقات ، ولم يتركوا شاعرا مشهورا من الجاهليين إلا رأوا فيه رأيا ، واهتموا فوق ذلك بجمع الشعر وروايته وتدوينه